

العنوان:	فقه المواريث عند ابن حزم الأندلسي
المؤلف الرئيسي:	شائبي، عبداللطيف
مؤلفين آخرين:	العبيدي، فتحي بن الشريف(مشرّف)
التاريخ الميلادي:	2010
موقع:	تونس
الصفحات:	99 - 1
رقم MD:	928503
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
اللغة:	Arabic
الدرجة العلمية:	رسالة ماجستير
الجامعة:	جامعة الزيتونة
الكلية:	المعهد الأعلى لأصول الدين
الدولة:	تونس
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	علم المواريث، فقه المواريث، الأحكام الشرعية، ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد، ت. 456 هـ. ، التراجم، التركات، الحقوق المدنية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/928503

للاستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب أسلوب الاستشهاد المطلوب:

إسلوب APA

شائبي، عبداللطيف، و العبيدي، فتحي بن الشريف. (2010). فقه المواريث عند ابن حزم الأندلسي (رسالة ماجستير غير منشورة). جامعة الزيتونة، تونس. مسترجع من <http://search.mandumah.com/Record/928503>

إسلوب MLA

شائبي، عبداللطيف، و فتحي بن الشريف العبيدي. "فقه المواريث عند ابن حزم الأندلسي" رسالة ماجستير. جامعة الزيتونة، تونس، 2010. مسترجع من <http://search.mandumah.com/Record/928503>

الفصل الأول

عصر ابن حزم و حياته

المبحث الأول: عصر ابن حزم

المبحث الثاني: حياة ابن حزم

تمهيد:

للأندلس في قلوب المسلمين مكانة خاصة. ولصورتها في ذاكرتهم إشراقة لا يمكن

أن تمحى.

فهو ذلك الامتداد لحركة الفتح الإسلامي الذي كانت إفريقية قاعدته و منطلقه، و هي ذلك الفردوس الذي ضيَّعه انقسام الملوك و انسياقهم وراء مصالحهم الضيقة وإغفالهم للقيمة التاريخية والحضارية للأرض التي كانوا عليها يحكمون، حتى أصبحت مأساة المسلمين و الذكرى المؤلمة في وجدان الأمة. وهي مع هذا كله علامة مشرقة في فضاء الحضارة الإسلامية بفضل عطاءات رجالاتها و إسهامات أعلامها في شتى المجالات والميادين. هؤلاء الرجال الذين نحتوا بخصوبة عقولهم وعلو هممهم ملامح الصورة الأندلسية الإسلامية الوهاجة و المضيئة و أثروا تراث الأمة بكنوز و درر كانت ولا تزال محط اهتمام الدارسين و مرجعا للعلماء و الباحثين.

إن ما يشدنا إلى الأندلس في دراستنا هذه ليست قصورها و معمارها و لا خصبها وأنهارها إنما يشدنا إليها علم من أعلامها و فقيه من فقهاء شقّ لنفسه نهجا مبينا لما ألقى عليه الناس و نحا في فقهه منحى لم يعهده أهل البلاد و لا علماؤها، وخاض ببراعة بحر علوم عدّة فكان مع فقهه مؤرخا ناقدًا، و متكلمًا ملهمًا، و مجادلًا مفحمًا، و أديبا شاعرا حتى عدّه البعض "آية عصره في نضج الدّهن و دقة البحث و عمق التفكير" (1).

إنّه ابن حزم الأندلسي الذي أثنى عليه الإمام الحجّة أبو حامد الغزالي (ت 505هـ)

فقال: "وجدت في أسماء الله كتابا ألفه أبو محمد بن حزم الأندلسي يدلّ على عظم حفظه و سيلان فهمه". (2)

(1) غسان، محمد عبد الله، "دولة الإسلام في الأندلس": ص 431.

(2) ابن العماد الحنبلي، "شذرات الذهب": 299/3

وأكد هذه القيمة العلمية سلطان العلماء عزّ الدين بن عبد السلام حين قال: "مارأيت في كتب الإسلام في العلم مثل المحلّي لابن حزم"⁽¹⁾.

غير أن هذه الصّورة - حسب ما يبدو - لم تكن محلّ إجماع و لا موضع اتفاق لدى كلّ من عرف هذه الشّخصية إذ يرى فيه البعض نكسة في مسيرة العقل الإسلامي بما ينادي به من ظاهرية إنبنت على تعطيل للقياس و منع للتعليل و حصر للتشريع في دلالات ألفاظ النصوص الظاهرة. لقد عبّر الفقيه المالكي ابن العربي عن ذلك حين وصف السّاحة الفقهية بالأندلس عند عودته من رحلته المشرقية: "فلما عدت وجدت القول بالظاهر ملأ المغرب بسخيف كان من بادية إشبيلية يعرف بابن حزم"⁽²⁾.

وأكد هذا الانطباع بعض معاصريه في إحدى الرّسائل التي وجّهت إليه بقولهم: " واعلم أنّ صورتك عندنا أنّك جمعت ثلاثة أشياء، قلة الدّين و ضعف العقل و قلة التمييز و التحصيل"⁽³⁾.

إنّ هذا التّضارب في وصف هذه الشّخصية و التّباين في الآراء حولها يستدعي منا قبل دراسة فقه ابن حزم و آرائه في المواريث و أحكامها أن نتوقف عند حياة هذا الرّجل استجلاء لأهم محطاتها و تبيّن أبرز ملامحها و كشفا عن خصائص الحقبة الزمنية التي عاشها و مدى تأثير كل هذا في نحت تلك العلاقة المتوتّرة بينه وبين محيطه السّياسي و الثقافي و في ترسيخ قنامة الصّورة التي عبّر عنها الرّجل بقوله:

أنا الشّمس في جوّ العلوم منيرة

و لكنّ عيبي أنّ مطلعي الغرب

وإنّ رجالا ضيّعوني لضيّع

و إنّ زمانا لم أنل خصبه لجذب⁽⁴⁾

(1) ابن قدامة، "المغني": 10/1

(2) ابن العربي، أبو بكر، "العواصم من القواصم": ص 336

(3) ابن حزم، "الرسائل": ص 11

(4) ابن حزم، "طوق الحمامة": ص 5

المبحث الأول

عصر ابن حزم

العصر مفردة قرآنية دالة على معنى هام في التصور الإسلامي، إنه الزمن. و هو سواء كان قليلا أو كثيرا ليس إلا وعاء يحوي أفعال الإنسان واختياراته التي تتحول بعد ذلك إلى أحداث يصطبغ بها و يكتسب بها صورته في التاريخ. و ليست ملامح كل عصر إلا نتاجا لسلوكيات و ممارسات من يعيشون تلك الحقبة و من يملكون سلطة التأثير فيها. إنّ من أهم الحقب و أكثرها خطورة في حياة الأمم تلك الفترات التي تشهد تحولات في أنظمتها السياسية إذ يمكن أن تكون اتجاها نحو الرقي و النهوض كما يمكن أن تكون سبيلا إلى التذني و الانحطاط. و لقد ثبت في إحدى الحكم المأثورة أن أمرين لا يحدد لهما وقت بدقة، النوم في حياة الفرد والانحطاط في حياة الأمة، فلا يشعر بهما إلا إذا غلبا و استوليا. إنّ هذه الحقيقة كانت حاضرة في الأندلس لما بدأ الانحطاط فيها بسقوط مؤسسة الخلافة التي أقامها الأمير عبد الرحمان الداخل⁽¹⁾ و التي استمرت إلى سنة 422 هـ. و أضحت دولة الإسلام فيها بعد قوّة و عزّ مطمعا للأعداء و مسرحا للفتن و النزاعات الداخليّة و الخارجيّة. و أضحى عصر الطوائف الذي إمتدّ في تاريخ الأندلس نحو ثمانين عاما رمزا للتفكك و الانحلال السياسي رغم ما يبدو في بعض نواحيه من إشراق. و لأن الأمم و المجتمعات تخضع في اعتلائها أو سقوطها إلى سنن و نواميس ثابتة فإنّ ما حل بالأندلس كان حتما نتيجة لعلل أدّى ظهورها إلى هذا الانحطاط و التردّي. " فلو اتفق أن سقط نظام حكم على إثر حرب مفاجأة أي إثر علّة خاصّة فلا بدّ أن تكون ثمة علّة عامّة أدّت إلى سقوط تلك الدولة في الحرب، و بعبارة موجزة إنّ العلل الأساسية هي التي تؤدي إلى ظهور الأحداث الجزئية"⁽²⁾.

(1) هو عبد الرحمان بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (ت 172 هـ) لقب ب"صقر قریش"، أقام الخلافة الأموية

في الأندلس. "البيان المغرب": 243/3.

(2) مطهري، مرتضى، "المجتمع والتاريخ": 26/1.

إنّ العلل التي عرفتھا الأندلس زمن حكم ملوك الطوائف والتي أدت إلى ما شهدته من ضعف وتفكك و فوضى عارمة شملت جميع مجالات الحياة هي مايمكن اعتباره السمات البارزة لتلك الحقبة.

أ. السمات السياسية

لم تفقد الأندلس عزتها ومنعتها، ولم يجعلها مطمعا لأعدائها إلا ذلك الفساد الذي كان عليه ساستها، وذلك التكالب على الحكم الذي أباح لهم تحويل بلادهم إلى مقاطعات يتنازعون التحكم فيها، ويتنافسون على تسخير ثرواتها لإشباع أطماعهم ونزواتهم. إن انحراف ملوك الطوائف عن المنهج الرباني واستباحتهم المحرمات والحرقات واستهتارهم بأحكام الدين وحدوده من العلامات المميزة التي أجمع المؤرخون على وصف عصرهم بها.

لقد دفعهم حرصهم على السلطة إلى الاستعانة بأعدائهم والاستقواء بهم على بعضهم والتنافس في استرضائهم بما يدفعونه لهم من أموال ابتزوها من رعاياهم ومن ثروات أنقلوا كواهل محكوميههم بها، و"استساغوا لأنفسهم أن يتراموا على أعتاب الملوك النصراني، وأن يستعدوهم لا في سبيل قضية محترمة، ولكن لاقتطاع بلدة أو حصن من مملكة شقيقة، أو التنكيل بأحد الأمراء المجاورين".⁽¹⁾

وكان ضعفهم وتشتتهم سببا في فقدان هيبته وانكسار شوكتهم، فخضعوا صاغرين لعدوهم الذي لم ير فيهم إلا أتباعا أذلاء وأذيا لا مهينة يحركها كيف شاء، غير آبه بملكهم ولا متهيب لسلطانهم، مادام كيدهم بينهم ومصيرهم بين يديه.

يصف المقرئ الحال الذي أصبحت عليه الأندلس فيقول: "قام الطوائف بعد انقراض الخلائف وانتزى الأمراء والرؤساء والبربر والموالي بالجهات واقتسموا خطتها وتغلب بعضهم على بعض واستقل أخيرا بأمرها ملوك استفحل أمرهم ولاذوا بالجزى يدفعونها للطاغية (كبير النصراني) أن يظاهر عليهم أو يبيتز ملكهم".⁽²⁾

(1) غسان، محمد عبد الله، "دولة الإسلام في الأندلس": ص 416

(2) المقرئ، "نفح الطيب": 59/4.

لم تكن علاقة ملوك الطوائف بشعوبهم أفضل حالا من علاقتهم ببعضهم، فقد قامت ممالكهم على الاضطهاد و الاستبداد السياسي و مصادرة الحقوق و الحرمان من أدنى مقومات الكرامة الإنسانية، إذ كانوا طغاة قساة على رعيّتهم، يسومونهم الخسف، و ينقلون كواهلهم بالفروض و المغارم لملء خزائنهم و تحقيق ترفهم و بذخهم، ولم يكن يردعهم في ذلك رادع لا من الدين، و لا من الأخلاق.⁽¹⁾

و لعل أبرز صور ذلك الاستبداد ما قاموا به من مطاردة للعلماء، و مصادرة لأفكارهم، و منع لكل رأي حر مغاير لسياستهم و معارض لاختياراتهم، ناقد لممارساتهم و انحرافاتهم، وكان إحراق كتب ابن حزم و غيره من مظاهر الظلم و القهر الفكري السائد في ذلك العهد. و قد ساهم الفقهاء في ترسيخ هذا الاستبداد بتواطئهم مع أمراء الطوائف، و تزكية تصرفاتهم، و تبرير طغيانهم و ظلمهم، فتخلوا بذلك عن واجبهم الشرعي و دورهم الأساسي في التوجيه و الإرشاد.

إنّ مسؤولية الفقهاء تلزمهم بالنصح للأمة، حاكمها و محكومها، و التذكير بحدود الدين و حقوق الله تعالى على العباد، و حقوقهم على بعضهم البعض. و هم -إذا صدقوا الله تعالى- واجهة تصدّ كلّ بعد عن شرعه، و تصحّ كل انحراف عن نهجه، و تردع كل مشاقّ لحكمه.

و تاريخ الأمة يشهد لكثير من الفقهاء و قوفهم في وجه استبداد الطغاة و ظلمهم، و صدعهم بكلمة الحقّ و عدم إقرارهم بالباطل متمّثلين مبدأ الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر الذي به اكتسبت الأمة خيريتها، قال الله تعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تُنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) [آل عمران: 110]

غير أنّ استقالة الفقهاء، و تخليهم عن واجب النصح، و تحوّلهم من كونهم منارات هدى و دعاة رشاد إلى أعوان في ركب الطغاة يسيرون، و لانحرافاتهم يبررون، تواطؤ يحملون وزره إلى يوم الدين.

(1) غسان، محمد عبد الله، "دولة الإسلام في الأندلس": ص 416

لقد كان الفقهاء في الأندلس في زمن الطوائف بشهادة بعض المؤرخين أعوانا على الباطل، متهيئين بطش الحكام، متعاونين معهم حتى أصبحوا داء من الأدواء التي أثقلت الأمة و زادت في عللها"و لم تزل آفة الناس مذ خلقوا في صنفين كالمح: فيهم الأمراء و الفقهاء، قلّ ما تتنافر أشكالهم، بصلاحهم يصلحون، و بفسادهم يفسدون. فقد خصّ الله تعالى هذا القرن الذي نحن فيه من اعوجاج صنفهم لدينا بما لا كفلية له و لا مخلص منه، فالأمراء القاسطون قد نكبوا بهم عن نهج الطريق زيادا عن الجماعة، و جريا إلى الفرقة، و الفقهاء أئمتهم صموت عنهم، صدف عما أكده الله عليهم من التبيين لهم، قد أصبحوا بين آكل من حلوائهم، و خابط في أهوائهم، و بين مستشعر مخافتهم، آخذا بالتقية في صدقهم".⁽¹⁾

ب. السمّات الثّقافية

غالبا ما تتصف عهود الفتن و الاستبداد السياسي بالتخلف الثقافي و الركود العلمي، إذ يعدّ الاستبداد و العلم ضدّان متغالبان.

وعادة ما تسعى كلّ سلطة مستبدّة إلى إطفاء نور العلم، وطمس كلّ جهد لإخراج الناس من ظلمات الجهل إلى فضاءات النور.

لئن كانت هذه الحقيقة قاعدة عامّة في كلّ أزمنة الظلم و الاستبداد فإن ما شهدته الساحة الفكرية و الثقافية في بلاد الأندلس زمن ملوك الطوائف استثناء لا مثيل له، إذ شهدت نهضة علمية و أدبيّة ازدانت بأسماء لامعة سطعت في سماء الممالك و أشرقت في ليلها الحالك. لقد كانت قصور أمراء الطوائف منتديات زاهرة و فضاءات عامرة بالمسامرات الأدبية و الشعرية و مسرحا للسجلات و المناضرات الفقهية و الكلامية.

"إنّه لما يلفت النظر حقا، أن ممالك الطوائف، كانت خلال هذا الانحلال الشامل، تبدو في أثواب لامعة زاهية...و كان ملوك الطوائف بالرغم من طغيانهم المطبق، من حماة العلوم و الآداب. و إنها لظاهرة من أبرز ظواهر عصر الطوائف، أن يكون معظم الملوك و الأمراء من أكابر الأدباء و الشعراء و العلماء".⁽²⁾

(1) ابن عذاري، "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب": 254/3.

(2) غسان، محمد عبد الله، "دولة الإسلام في الأندلس": ص 420.

لقد ساعد على تحقيق هذه النهضة العلمية تنافس أمراء الطوائف في استجلاب فطاحل العلماء واستضافة أبرز الأعلام في شتى الفنون.

ولم يتوان هؤلاء الساسة في إنفاق الأموال الطائلة وتسخير الثروات الهائلة لجعل قصورهم مقصدا للشعراء وقبلة لأشهر الأدباء، فكانت بطانتهم ووزرائهم وندماؤهم من البارعين في ميادين الفكر والناهبين في فنون الكتابة والقول، وإليهم يعود الفضل في تأسيس تلك الحركية الفكرية التي كانت بلاطات ملوك الطوائف⁽¹⁾ في كل من قرطبة وإشبيلية وغيرهما من الممالك مسرحا لها.

و كما كانت قصور قرطبة مراكز استقطاب فكري وثقافي، فقد حوت خزائنها كنوزا معرفية نادرة ومؤلفات علمية نفيسة كان ملوك بني أمية قد أنفقوا ثروات هائلة لاقتنائها.

وما كان يعجزهم عن تزويد مكتباتهم بأحدث ما كتب وأشهر ما عرف بعد مسافات ولا غلاء أثمان. فقد نقل صاحب نفح الطيب عن أحدهم⁽²⁾ أنه "كان يبعث في شراء الكتب إلى كل الأقطار رجالا من التجار ويرسل إليهم الأموال لشرائها حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهده... وبعث في كتاب الأغاني إلى مصنفه أبي الفرج الأصفهاني بألف دينار من الذهب العين فبعث له بنسخة من قبل أن يخرج في العراق".⁽³⁾

ولعل النبوغ العلمي والشغف المعرفي اللذين عرف بهما ابن حزم كانا وليد تلك الصلة الوطيدة التي جمعت بهذه المكتبة أثناء تولي أبيه الوزارة في بلاط أبي عامر.⁽⁴⁾

(1) من أشهر هؤلاء الملوك بنو عبّاد في إشبيلية و بنو الأفطس في بطليموس و بنو صمادح في ألمرية... أنظر محمد عبد الله غسان "دولة الإسلام في الأندلس"، ص 431/424

(2) الحكم بن عبد الرحمان الناصر (ت 366هـ) (تولى الحكم بقرطبة بعد أبيه. * ابن عذاري، "البيان المغرب": 233/2.

(3) المقرئ، نفح الطيب: 83/2.

(4) هو أبو عامر محمد بن أبي حفص (ت 392هـ)، حكم الأندلس بضعا و عشرين سنة، لقب بالمنصور، قيل فيه:

أثاره تنبيك عن أخباره حتى كأنك بالعيون تراه
تا لله ما ملك الجزيرة مثله حقا و لا قاد الجيوش سواه

* م. ن: 301/2.

وبقدر ما كانت الساحة الأدبية والعلمية مجالا خصبا للتنوع والاختلاف، طغى على الحياة الفقهية في الأندلس التقيد بمذهب فقهي واحد، ظل أهلها مرتبطين به منذ أواخر القرن الثاني (180 هـ)، وهو التاريخ المرجح لدخول المذهب المالكي إلى البلاد بفضل جهود ثلة من الفقهاء الذين أسسوا لانتشار فقه الإمام مالك والتزام الناس به.

وكانت واضحة ابن حبيب (1) والعتبية (2) المرجعين اللذين فرضا نفسيهما على الأندلس، وبدأ الاهتمام بهما جليا في جملة من الشروح الغنية وذات القيمة الجوهرية.

يقول ابن خلدون (ت808هـ/1406م): "ولم يزل علماء المذهب يتعاهدون هذه الأمهات بالشرح والإيضاح، والجمع، فكتب أهل إفريقية على المدونة ماشاء الله أن يكتبوا،... وكتب أهل الأندلس على العتبية ما شاء الله أن يكتبوا" (3).

لقد ساعد احتفاء السلطة السياسية بالمذهب المالكي واعتمادها فقه إمام دار الهجرة أساسا في الفتوى والقضاء على تفرده في الساحة الفقهية وعدم بروز أي فقه مخالف.

ولم يكن أهل الأندلس يعترفون بغير مذهب الإمام مالك واجتهاداته منهجا، وما كان أحد يجروء على إفتاء الناس أو فض نزاعاتهم بما لا يوافق أصول المذهب أو فروعه.

فقد ثبت أن "منذر بن سعيد" (4) كان متفتنا في ضروب العلم، وغلب عليه التفقه بمذهب أبي سليمان داود بن علي المعروف بالظاهري (ت270هـ). وكان منذر يؤثر مذهبه، ويجمع كتبه، ويحتج لمقالته، ويأخذ به في نفسه وذويه، فإذا جلس للحكومة قضى بمذهب

(1) هي من أهم الكتب المؤلفة في الفقه المالكي، حظيت بمكانة متميزة في بلاد الأندلس في القرنين الثالث والرابع، وكان مؤلفها عبد الملك بن حبيب القرطبي (ت238هـ/853م) عالم الأندلس وفقهيا في عصره).
* ابن الفرزي، "تاريخ علماء الأندلس": 312/1.
* الحميدي، "جذوة المقتبس": ص263.

(2) (هي الكتاب الذي ألفه الفقيه المالكي محمد بن أحمد العتبي (ت255هـ/869م)، تسمى كذلك المستخرجة، ضمت مسائل فقهية سمعها تلاميذ الإمام مالك ثم رووها عنه).
* العلوي، علي، "المنهج الاجتهادي لابن رشد": ص47.

(3) ابن خلدون، "المقدمة": ص357.

(4) منذر بن سعيد بن عبد الله البلوطي (ت273هـ/355هـ)، كان خطيبا بارعا، و بصيرا بالجدل. تولى القضاء * ابن الفرزي، "تاريخ علماء الأندلس": 846/2.

الإمام مالك وأصحابه، وهو الذي عليه العمل بالأندلس وحمل السلطان أهل مملكته عليه".⁽¹⁾ إن الدعم الرسمي الذي كان يحظى به المذهب المالكي هو الذي دفع ابن حزم إلى تشبيهه بمذهب أبي حنيفة واعتبار انتشارهما وليد ذلك الإلزام القسري الذي كانت تمارسه السلطة على رعاياها . لذلك، لم تعرف الأندلس حتى بداية القرن الخامس فقها مخالفا للمذهب المالكي، وكانت إمكانية بروز مذهب مغاير أو قبول تواجد فقه آخر أمرا مرفوضا لدى أغلب الفقهاء الذين لم يتورع بعضهم أحيانا ،بدافع الحمية والتعصب المذهبي، عن استعداد الأمراء وأصحاب النفوذ على كل من خالف مذهبهم أو اختار رأيا آخر غير رأيهم.

لقد أكد ابن حزم في إحدى رسائله شدة التضييق الذي كان يتعرض له، وحجم المعاناة التي كان يعيشها بسبب نصرته للمذهب الظاهري، ومناظرته للعديد من فقهاء المالكية في أصول المذهب وفروعه.

هذه المناظرات التي استطاع من خلالها أن يفهم مخالفيه، وأن يكسب بما أوتي من مهارة في الجدل ،وما تميّز به من فصاحة لسان، وقدرة على البيان-تأييد بعض الولاة⁽²⁾ لفكره واستعدادهم لاستضافته وحمايته من معارضيهِ وكيدهم.

فمن هو هذا الفقيه الذي حاز الصدارة في بلد كان أكثر أهله من معارضيهِ؟ وما سرّ هذه الشخصية التي اكتسحت شهرتها سماء الأندلس؟

هذه الشهرة التي أقرّ بها الفقيه المالكي أبو الوليد الباجي عند عودته من رحلته العلمية في المشرق، حيث ألقى لابن حزم "صيّا عاليا، وظاهريات منكّرة. وكان لكلامه طلاوة قد أخذت قلوب الناس، وله تصرف في فنون تقصر عنها السنة فقهاء الأندلس في ذلك الوقت...فعلا بذلك شأنه وسلّموا الكلام له على اعترافهم بتخليطه، فحادوا عن مكالمته حتى صار شيخ ميّورقة ورأس أهلها".

(1) المقرئ، نفح الطيب: 77/2.

(2) (أحمد بن رشيق(ت440هـ/1048م)، عينه الأمير مجاهد العامري واليا على ميورقة، استضاف ابن حزم وأتاح له نشر آرائه ومناظرة بعض فقهاء المالكية بين يديه).

* تركي، عبد المجيد، "مناظرات في أصول الشريعة": ص 61.

المبحث الثاني

حياة ابن حزم

أورد ابن بشكوال في كتابه الذي خصصه للتعريف بعلماء الأندلس وفقهائها شهادة في ابن حزم نعتته بأنه "كان حافظاً، عالماً بعلوم الحديث وفقهه، مستنبطاً للأحكام من الكتاب والسنة، متفناً في علوم جمة، عاملاً بعلمه، زاهداً في الدنيا بعد الرياسة التي كانت له ولأبيه قبله في الوزارة وتدبير الممالك، متواضعاً ذا فضائل جمة وتوالت في كل ماتحقق به من العلوم، وجمع من الكتب في علم الحديث، والمصنفات، والمسندات كثيرا".⁽¹⁾

إن اجتماع هذه الخصال في شخصيّة واحدة يجعل تقديم صورة كاملة عن حياة صاحبها أمراً غير هيّن، لذلك سنكتفي بانتقاء أهم المحطات التي عرّفناها، وإبراز أهم الملامح التي ميّزتها والتي أثّرت في مسيرة ابن حزم وفي تحديد اختياراته وتوجّهاته الفكرية.

1- نسبه

هو أبو محمد عليّ بن أحمد بن سعيد بن غالب بن صالح بن خلف بن سعدان بن سفيان بن يزيد مولى يزيد بن أبي سفيان.⁽²⁾

يرجع المؤرخون بأصل ابن حزم إلى أسرة فارسيّة دخلت الأندلس واستقرت بإحدى قرى لبلة الواقعة في غرب البلاد.

ويقرّون لهذه الأسرة انصافها بالفضل والأدب، واشتغارها بالعلم، وولائها للأمويين حتى قبل إقامة دولتهم ببلاد الأندلس.

ولأب جمع بين النباهة العلمية والمكانة السياسية⁽³⁾، وفي أحد قصور الجانب الشرقي

(1) ابن بشكوال، "الصلة في تاريخ أئمة الأندلس": 395/2.

(2) انظر ترجمته في: الصلة (2/415-417)، جذوة المقتبس (ص308-311)، المعجب المغرب (1/345-357)، وفيات الأعيان (3/325-330).

(3) (هو أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب، (ت402هـ-)، كان من أهل العلم والخير والأدب، تولى الوزارة للمنصور ابن أبي عامر ولابنه المظفر من بعده).

* الحميدي، "جذوة المقتبس": 1/199.

لقرطبة، ولد هذا الفتى الذي عرف في حياته تقلبات و أحداث جعلته يقضي سنوات عمره الممتدة منذ ولادته في آخر يوم من شهر رمضان سنة أربع و ثمانين و ثلاثمائة إلى وفاته سنة ست و خمسين و أربع مائة مرتحلا بين مدينة وأخرى ناشدا الاستقرار الذي فقده منذ انتقال أسرته من مقامها الأول في شرقي قرطبة حتى انتهى به التطواف إلى اللجوء إلى تلك القرية التي اختارتها أسرته الأولى مقرا لها، حيث قضى أواخر عمره.

2- تكوينه العلمي

حرص الوزير أبو عمر على تنشئة ابنه تنشئة علمية متينة، فكلف أحد الصالحين بمرافقة الفتى وتزويده بما تكمل به شخصيته من معارف وقيم، بعد أن حصل على ما كان يحصل عليه الناشئون في بيوت الأمراء والوزراء من حفظ للقرآن، واثقان للشعر وما به يقوم اللسان ويطلق البيان .

يقول ابن حزم: "فلما ملكت نفسي وعقلي، صحبت أبا الحسن بن علي الفارسي، وكان عاقلا، عالما ممن تقدم في الصلاح والنسك الصّحيح والزّهد في الدّنيا والاجتهاد للأخرة"⁽¹⁾. لقد كان لمصاحبة هذا الرجل الصالح الأثر الكبير في تحصين الفتى عن الانشغال بحياة القصور وما تعرفه من لهو وترف، وفي تنشئته على الاستقامة والتعقّف. فانصرفت همّته إلى طلب العلوم ودراسة الحديث والأدب والأخبار قبل أن يتوجّه إلى الفقه على أيدي العديد من العلماء الذين لقيهم في قرطبة حيث كان مقامه الأول أو في غيرها من حواضر الأندلس التي ارتحل إليها.

وبجوار هؤلاء العلماء الذين تلقى عليهم واختلط بهم⁽²⁾، كان ثمة أساتذة آخرون قد أفاد من آثارهم التي زخرت بها مكتبات قرطبة وبلنسية والشّاطبة وغيرها من مدائن الأندلس التي نزل بها، واستمدّ منهم ما بفضله تكوّنت شخصيته العلمية التي استطاعت أن تشقّ لنفسها طريقا بين العظماء وأن تخلّد اسمها بين صفوف العلماء.

(1) ابن حزم، "طوق الحمامة": ص 126

(2) من أبرز شيوخ ابن حزم: أحمد بن الجسور (ت 401هـ)، الفقيه عبد الله بن دحون (ت 431هـ)، عبد الله الأزدي

المعروف بابن الفرضي (ت 403هـ).

* أبو زهرة، محمد، "ابن حزم": ص 38.

ولمّا كانت السيادة في الأندلس للمذهب المالكي ، فقد انطلقت المسيرة الفقهية لابن حزم بالاطلاع على فقه إمام دار الهجرة ودراسة الموطأ قبل أن يختار اتباع المذهب الشافعي في مرحلة سابقة لتبنيّه الفقه الظاهري الذي وجد فيه ما تتوق إليه نفسه من تحرر من روح التقليد التي كانت مهيمنة على الناس ومن تقديسهم للأشخاص.

لاشكّ أنّ التكوين العلميّ لابن حزم ، وتعمّقه في دراسة علوم الحديث، وما كان عليه من نزوع إلى نبذ كل قيد ورفض كل تقليد إلا ما كان صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم الأسوة فيه، إضافة إلى انشغال أهل الأندلس بفقه المسائل وإعراضهم عن الاجتهاد والنظر في الأصول، من أهم الأسباب التي دفعت هذا الفقيه إلى الميل إلى الإمام الذي "وجد فيه علماء الحديث نصيراً مهماً في المنافحة عن السنة والانتصار لمنهج المحدثين في حين أصبح الحامل للحديث من دون رأي محل تندر وتفكه".⁽¹⁾

و يبدو تأثر ابن حزم بالإمام الشافعي و منهجه الفقهيّ و الأصوليّ جليّاً إذا نظرنا في القواعد و الأسس التي بني عليها بعد ذلك مسلكه الاجتهاديّ الظاهريّ الذي كانت بدايته في الأندلس في القرن الثالث مع بعض أعلام الفقه و الحديث مثل بقيّ بن مخلد⁽²⁾.

و لم يكن الفقه أو الحديث فقط هما شغل مفكرنا فقط، بل كانت همته المعرفية تحظّه على الاستزادة من العلوم و النهل من منابع العرفان كلها.

(1) قريسة، هشام، " الاستدلال و أثره في الخلاف الفقهي ": 651.

(2) أبو عبد الرحمان بقي بن مخلد القرطبي (ت276هـ) كان إماماً مجتهداً.

3- الرحلة في حياة ابن حزم:

لأن كانت الرحلة في طلب العلم سمة بارزة في حياة علماء الأندلس، و كانت بلاد المشرق وجهتهم الرئيسية، فإن حياة ابن حزم لم تخل من رحلات كانت كلها بين مدائن الأندلس و حواضرها.

و لعلّ أبرز المحطات التي يوقف فيها الفقيه الظاهري هي:

* **قرطبة:** هي منشأ ابن حزم و المدينة التي قضى فيها الفترة الأولى من حياته في قصور أسرته. و كانت قرطبة قبلة يتوجه إليها كلما تمكن من ذلك أو استقرّ الأمر السياسي بها.

و لقد كان خروج ابن حزم منها نتيجة الفتن و الاضطرابات التي هزّتتها و جعلت الموالين للسلطة الأموية هدفا للمتسلطين الجدد و عرضة للعقوبة و التنكيل.

* **ميورقة:** هي أهم المحطات في حياة ابن حزم العلمية، إذ لقي فيها حظوة لدى واليها، و كان التأييد السياسي الذي ناله سببا في استقراره فيها و انتشار آرائه الظاهرية بين أهلها.

غير أنّ فقدان هذا السند قد أدّى إلى ارتحاله منها لما أصبح عرضة لتظاهر الفقهاء و محاربتهم لأفكاره.

* **إشبيلية:** هي المحطة التي حلّ بها ابن حزم بعد خروجه من ميورقة، و كان حاكمها المعتضد بن عبّاد⁽¹⁾ معروفا بشدّته و قسوته حتّى أنّه كان يشبه بالخليفة العبّاسي أبي جعفر المنصور.

و لقد كان تأليب الفقهاء عليه، و تحريضهم الأمراء، و شكواهم من أنه كان يهاجم مالكا و الأئمة معه، و أنّه قد خرج على الناس بفقّه لم يعهده أهل الأندلس، سببا في إصدار الأمر بإحراق كتب ابن حزم و إجباره على العودة إلى ديار أسرته بلبلّة حيث قضى بقية حياته.

(1) أبو عمرو عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمي الأندلسي، حكم إشبيلية بعد وفاة أبيه سنة (433هـ)، بقي حكمه حتّى وفاته (ت464هـ). كان معروفا بالصرامة والقسوة.

4- المحنة في حياة ابن حزم:

في إحدى مناظراته مع أبي الوليد الباجي أكد ابن حزم حالة النعمة و الرخاء التي كان ينعم بها و هو يطلب العلم لما قال له خصمه: " أنا أعظم منك همّة في طلب العلم لأنك طلبته و أنت معان عليه فتسهر بمشكاة الذهب، و طلبته و أنا اسهر بقنديل بئس السوق". فردّ عليه ابن حزم: " هذا كلام عليك لا لك، لأنك طلبت العلم رجاء حال تريد تبديلها بمثل حالي، و لكني طلبته لا أرجو إلا نفعه دنيا و أخرى"⁽¹⁾.

لم تكن حالة النعمة في حياة الرجل سوى عرضا عصفت به المحن و هزته النكبات التي لم تكد تخلو أغلب فترات حياته منها.

فكانت أولى المحن هي تلك التي عرفها في سن الفتوة حين حل بقرطبة ذلك الانقلاب السياسي الذي أخرج السلطة من أيدي بني أمية و جعل أتباعهم و أعوانهم يعيشون معاناة تحول الملك و انحلال الأمر.

و كانت محنة ابن حزم شديدة لاقتزان هذا الاضطراب السياسي بفقدان السند المادي و المعنوي عند وفاة أبيه الوزير و اضطرار أسرته إلى هجر قصورها في شرق الأندلس. يقول ابن حزم معبرا عن هذه المحنة: " و شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد⁽²⁾ بالنكبات و باعتداء أرباب دولته، و امتحنا بالاعتقال و الترقيب و الاغرام الفادح و الاستتار، و أرزمت الفتنة و ألفت باعها و عمّت الناس، و خصتنا، إلى أن توفي أبي الوزير رحمه الله ... و اتصلت بنا تلك الحال بعده"⁽³⁾.

و لئن كان السبب في المحنة الأولى انتماء ابن حزم إلى أسرة كان رئيسها مشغولا في السياسة فإن آخر محنة عرفها كانتا نتيجة اختياراته الفكرية و المذهبية و بسبب آرائه الفقهية و الأصولية التي أثارت من حوله خصومات كثيرة و جعلته عرضة للاتهام بالمروق و الزندقة.

(1) ابن حزم، " طوق الحمامة": ص 6.

(2) هشام بن الحكم بن عبد الرحمان، تولى الحكم وهو في سن الثانية عشرة، كان ضعيف الرأي وقام بتدبير الكم في عهده

وزيره المنصور ابن أبي عامر.

(3) م. ن : ص 153

و كان قرار حاكم إشبيلية القاضي بإحراق كتب ابن حزم المحنة العظمى و النكبة القاسمة التي هزّت وجدانه و أوحشت نفسه و جعلته ينزح في أواخر حياته و يهجر مدن الأندلس و أقطابها العلميّة و الفقهيّة. و بين النكبة الأولى و الأخيرة لم تخل حياة الرّجل من هزّات و فتن تعرّض لها بسبب ولاءاته السياسية و اعتقاداته المذهبية.

5- شخصيته:

إنّ المكتبة القيمة التي مثّلت خلاصة فكر الرّجل و تجاربه في الحياة، و مواقفه الفقهية و الأصوليّة و الفلسفيّة تشهد أنّه استوعب ثقافة عصره استيعابا كاملا. و تمكّن بما أوتي من قدرات ذهنيّة و ما جبل عليه من صفات و مناقب شخصيّة من نحت اسمه ضمن قائمة أعلام الأندلس الخالدين. هذه الصفات التي أكدها ابن حزم بقوله: " و عني أخبرك أنّي جبلت على طبيعتين لا يهنئني معهما عيش أبدا، و إنّي لأبرم بحياتي باجتماعهما وأودّ التّثبت من نفسي أحيانا لأفقد ما أنا بسببه من التّكد من أجلهما، و هما: وفاء لا يشوبه تلوّن قد استوت فيه الحضرة و الغيب و الباطن و الظاهر...

و عزّة نفس لا تقرّ على الضيم، مهتمّة لأقلّ ما يرد عليها من تغيّر المعارف مؤثرة للموت عليه⁽¹⁾".

لقد جعلت هذه الصفات منه ذلك الفقيه الذي يأبى تقليد غيره، و ذلك المناظر الذي يصعب إفحامه، و ذلك المجادل الذي لا يأبه لحجم خصمه. فكانت حياته صراعات فكرية مع كل من خالفه من الملل و النحل، واجه فيها بفكره الوقاد ولسانه الحادّ جمود الفقهاء و تعصّب العامة و دعاهم إلى الاجتهاد و نبذ التقليد و العودة إلى الأصول الثابتة.

و قاوم كلّ مقالة أو مذهب رأى فيه انحرافا عن التّصوّر الإسلامي الصحيح. و اجتهد في أن يشدّ الناس إلى التّبع الصّافي الذي تركه الرسول صلى الله عليه و سلّم دون تأويل أو تعليل أو تقليد.

و هاجم استبداد الحكام و تخليهم عن واجباتهم تجاه دينهم، و تجاه مجتمعاتهم، و عاب عليهم ترفهم و فسادهم و انشغالهم بمتاع الدنيا وزينتها، و انحرافهم عن قيم الإسلام و نهجه.

(1) م.س: ص 157.

فكان لذلك عرضة لتهجّم الفقهاء في عصره، و نيل العامّة من شخصه، و مصادرة الأمراء لآرائه و فكره. إنّ هذا المصير لا ينقص من قيمة الرجل و لا ينال من مكانته بين أفاض الفكر الإسلاميّ شيئاً، بل إنّهُ يبرز مدى انحراف المسلمين أحياناً عن حقيقة الإسلام و جوهره حين كرّم الإنسان في عقله و حرّك فيه نوازع المعرفة أيّاً كان مجالها، و ضمن له حقّ التنوع و الاختلاف و اعتبرهما من علامات الإيجابية و من سنن الحياة الكونيّة. قال تعالى: (وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ). [يونس:99].

6-آثاره:

ترك ابن حزم ثروة فكرية لا تكاد تجد لها نظيراً في تنوعها و اتساعها و شمولها و كانت مؤلفاته سواء ما اتلف منها لما تعرضت للإحراق، أو ما بقي منها شاهداً على سعة علمه و غزارة عطائه حتى أن تلميذه صاعد يقرّ بأنّ التاريخ الإسلامي لم يعرف بعد ابن جرير الطبري أكثر تأليفاً من أبي محمد بن حزم.

ولعل أبرز ما عرف من مدوناتهِ⁽¹⁾

- المحلى
- الإحكام في أصول الأحكام
- الفصل في الملل والأهواء والنحل
- مراتب الإجماع
- نقط العروس في نواذر الأخبار
- طوق الحمامة في الألفة والألاف
- الأصول والفروع

(1) انظر سير أعلام النبلاء: 18/184-212، موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين: 374/6.